بزّات عسكرية، ورافقوا الجنود الى الجبال لارشادهم الى أوكار ' قطاع الطرق ' » (ص ١٧٠). «وردّ أفراد ' عصابات السلام ' على ارهاب رجال المفتي بارهاب مضاد. واغتنمت عائلات كثيرة، كان لها ثأر عند زعماء ' العصابات ' القدامى، الفرصة لتصفية حساباتها، ونهشت حرب أهلية ضروس قوة الثورة العربية من الداخل» (ص ١٧١). وبقدوم شتاء ١٩٣٩، كانت الثورة العربية تحتضر. ولعل الاعلان عن الكتاب الابيض سنة ١٩٣٩ جاء تتويجاً سياسياً لمرحلة ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، وتصوّراً بريطانياً جدياً لتقسيم البلد، وانهاء حالة القتال داخلها. الّا انه لم يلق قبولاً، لا من الحركة الصهيونية، ولا من ممثلي الشعب الفلسطيني.

دور الهاغاناه، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩

تعرّض الفصل الثاني والاربعون الى دور الهاغاناه في احداث ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، معتبراً فترة أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧ ـ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨، انعطافاً كبيراً في تاريخ الهاغاناه. «وقد لاحت بواكير هذا الانعطاف في نهاية احداث سنة ١٩٣٦؛ لكنها ما كانت لتتطور بهذه السرعة لو لم تتجدّد الاحداث، بعنف أكثر، في بداية سنة ١٩٣٨» (ص ١٩١). ونتيجة لضغط الاحداث، وكبرها، نمت الهاغاناه؛ اذ أصبحت مطلباً أساسياً في حياة الييشوف، «فالخطر الداهم فتح عيون اوساط الييشوف كلها، وجعلها تعي حتمية انشاء قوة دفاعية كبيرة قدر الامكان. وازدادت روح التطوّع والتبرّع بالاموال» (ص ١٩١). وفي سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، استمر الاستيطان اليهودي في التغلغل الى مناطق جديدة. فقد أنشئت في سهل بيسان، وفي بحيرة طبريا، وفي الجليل الغربي، وفي شمال سهل الحولة، وفي أماكن أخرى، مستعمرات يهودية كثيرة وسّعت حدود الييشوف وعمّقت جذوره. «وخلّصت مساحات جديدة من أرض الوطن، واحتلت، عملياً، وتغيّرت المعطيات الواقعية لمشكلة أرض ـ اسرائيل الى مصلحة الييشوف والحركة الصهيونية. لقد كان الاستيطان اليهودي، في مناطق جديدة، القاعدة الاساسية لكل النشاطات السياسية والأمنية» (ص ١٩٢). وعلى قاعدة الاستيطان، بالذات، ونموّه، وتسليحه، وتطوير دفاعاته، قامت الهاغاناه بمختلف نشاطاتها في فترة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، بدءاً «من النضال ضد ' الارهاب العربي ' » (ص ١٩٥) الى ما تعلق بها «من مشكلات ضبط النفس والرد»، وكذلك ما ينبثق منها من أشكال تنظيمية جديدة نشأت من خلال القتال، كالخفارة، والوحدات الليلية الخاصة، وسرايا الميدان، وكذلك مشكلة الهاغاناه في توسيع الاستيطان اليهودي، والسور والبرج، وفي الهجرة غير الشرعية، والتطور التنظيمي للهاغاناه بفروعها المختلفة (شراء الاسلحة، والصناعة العسكرية، والاتصالات، وصندوق قدية الييشوف).

وعلى الرغم من ان الكتاب غاص في الاحداث الجزئية، خاصة في ما يتعلق بعمليات الوحدات الليلية والخفارة، الّا انه حافظ على الامساك بالخط العام للرواية، ليرسم، من خلال التفاصيل، دور الهاغاناه في الحفاظ على الاستيطان الصهيوني في فلسطين، من جهة، وتعاظمه وعسكرته، من جهة أخرى. وعدّد الكتاب، في استخلاصاته، سبعة انجازات للهاغاناه بعد انتهاء الثورة العربية، يمكن اختصارها، بالتالي: «ادراك أهمية الهاغاناه لدى أوساط الاستيطان الصهيوني في فلسطين، خاصة بين الفتية والشباب؛ وانشاء قوة الخفارة التي مكّنت المستوطنات من الدفاع عن نفسها ذاتياً؛ وخروج الهاغاناه من نطاق الشؤون المحلية للمستعمرات في اتجاه انشاء هيئة اركان عامة لتديرها كمنظمة عسكرية قطرية؛ والتقدم في مجال تدريب رجال الهاغاناه، بفضل الخبرة التي اكتسبت من العمل المشترك مع قوات الامن البريطانية، من ناحية، والتعلّم والتدرّب الذاتي، من ناحية أخرى» (ص ٥٣٢)؛ و«توثيق الصلات بأوساط الحكم البولندي، التي كانت ثمرتها شراء اسلحة جيدة وحديثة للهاغاناه، وبكميات لم تكن مألوفة سابقاً؛ اضافة الى دخول الهاغاناه قوة فعّالة الى ميدان النضال السياسي في مجالي الاستيطان والهجرة، واكتساب المزيد من الخبرة القتالية التي نالتها وحدات الهاغاناه خلال عملها العسكري». وذهب الكتاب الى اعتبار خبرات الهاغاناه، خلال الثورة العربية، «بروفة عامة للمعارك الحاسمة التي دارت سنة ١٩٤٨»، ذلك ان تفحّصاً سريعاً «لأسماء القادة الذين قادوا جيش الدفاع الاسرائيلي الى انتصاراته في حرب ' الاستقلال ' كفيل باظهار ان أكثريتهم الساحقة تلقّت تدريبها، واكتسبت خبراتها الأولى، وتعمّدت بالنار أول مرة، في سنوات الاحداث هذه، ومن المشكوك فيه ان الهاغاناه كانت ستقدر